

الفصل الخامس

حرمان الولد من الانضمام إلى الأسرة كأداة غضب أبوية

يحرك فيليب مناوراً دراجته بمهارة خارج رصيف المشاة، ويجتاز زاوية الباحة الرملية ليختصر الوقت. وتطير دراجته الكبيرة الخفيفة بوزن الريشة بسهولة فوق كومة صغيرة في الطرف البعيد. يخرج فجأة من الباحة ويحلق في الجو ويثب على الرصيف ويكبح جماحه في الشارع قرب المنزل. الآن على امتداد المنزل يكتشف سيارة والده الموجودة في الطريق. يتوقف وتتطلق من فمه الكلمة الممنوعة «shit!» كأنها فرقعة رصاصية صغيرة. يرن في سمعه من النافذة الأمامية المفتوحة وهو يجر قدميه في ممشى السيارة: «فيل أين أنت؟».

«أنا هنا في الخارج» يربط بعناية أعلى ما يملك في خطاف المرآب «أنا آت..»

يفتح الباب من المرآب إلى المطبخ ورأسه منحني ويجر جسمه داخلاً ليواجه النغمة ذاتها من أهله.

قال الأب: «أنا لا أعرف من أنت في هذه الأيام يا فيل» «لقد قبلت أن تأخذ على عاتقك مهمة تنظيف المسبح والعناية به إذا اشترينا لك دراجة لعيد ميلادك الاثني عشر. لقد اعتدنا أن نكون قادرين على الثقة بما تقول. ماذا يجري الآن؟ هل أنت مدمن مخدرٍ أو شيء من هذا القبيل؟ وانظر إلي حين أتكلم معك!».

رفع فيل رأسه وأجبر عينيه أن يتابع وحاول أن يقول: «لا لست مدمن مخدرات» ثم بدا جسمه وكأنه يتجمع حول نفسه ليلبس لبوس رجل فتي. «أهذا ما تظنه في؟».

«لا أعرف ماذا أظن. تبدو ضائعاً وكأنك في مكان آخر في كثير من الوقت. لا تبدو سعيداً هنا في المنزل. لا تقوم بأعمالك النظامية (الروتينية). ماذا علي أن أظن بك؟ أخبرني أنت».

ثمة احتمالان مختلفان كثيراً لما يجري في حياة فيليب في تلك الآونة. أحدهما لا يمكن تجنبه في ثقافتنا لأننا نبدأ سن الرشد متأخرين عن الوقت الذي تبتدره البيولوجيا.

كان فيليب يدخل سن البلوغ وجسمه يتغير بسرعة. وهذا التحول هو طريقة في البيولوجيا لتشكيل جسم البالغ الراشد. ينبغي أن تراجع الجماعة التي يعيش فيليب بين ظهرانيها ما تعلمه عما كانت تجري عليه الأمور في ثقافات كثيرة في تاريخ الإنسانية من تعليم وإعداد واحتفالات ضرورية للترحيب بفيليب عضواً كامل العضوية كشخص راشد في الجماعة. إلا أن أسرة فيليب ومدرسته وجماعته ليسوا قريبين من إدراك إن كان فيليب بالغاً من الناحية البيولوجية أو إن كان عضواً راشداً في الجماعة. هذا وقت طبيعي ولكنه غير مأمون بالنسبة إلى جميع الأسر.

ينبغي أن يرحب بنا في الجماعة من أجل أن يحددوا من نحن. ومن نحن (أي: هوياتنا) تشكلها علاقاتنا. ولكي يعرف فيليب نفسه كشخص واقعي عليه أن يتمتع بعضوية كاملة في جماعة مؤلفة من أشخاص واقعيين حقيقيين. ووضع عضوية فيليب غير واضح لديه، وهذا يشوشه ويربكه من هو أو ماذا هو.

لماذا لا يتضح لفيليب ما هو أو من يكون؟

الجواب متصل بنماذج السيطرة الأبوية وبالغضب، وهي أمور أكثر جدية لجميع المهتمين بكون الأولاد يصبحون مشوشين حين يصبحون راشدين.

لتعلم ماذا يكون شعور الراشد

ينبغي أن يعامل الأولاد أحياناً كأنهم راشدون. هذه المعاملة تنبئ الأولاد أنهم مثل أولئك الراشدين.

تعبير «أناس مثلي» هو أساس تعرف من هو المرء. وهؤلاء الأناس يستجيبون لصالح ورفاهية الأولاد بنفس الطريقة التي يستجيبون بها لصالحهم ورفاهيتهم هم أنفسهم، ويتوقعون الأمر نفسه من الأولاد. هذه إحدى أخلاقيات الجماعة. أخلاقية، لأن معاملة الآخرين بنفس الطريقة التي يعامل فيها الإنسان نفسه تكشف عن موقف أخلاقي.

ولسوء الطالع إذا نظرنا إلى تاريخ الجنس البشري والممارسة الحالية نجد أن الجماعات الأخلاقية لا تشمل كل الناس (بعد). والناس الذين يبدون خارج الجماعة الأخلاقية لا يعاملون بنفس الطريقة التي يعامل بها من هم في داخلها. ولا ينظر إليهم على أنهم أناس واقعيون، ولا تبدو آلامهم نفس آلام من هم داخل الجماعة الأخلاقية.

إنهم مختلفون ولا ينبغي التفكير فيهم إلا كمرشحين للإحسان، وذلك فقط حين لا يكونون متطلبين كثيراً.

ينبغي أن يرحب بالأولاد في الجماعة الأخلاقية. جماعة «أناس مثلنا» وإلا فإنهم لن يعرفوا من هم ومن يكونون، وكيف يتصرفون، وسوف يشعرون أنهم ليسوا أناساً حقيقيين. ربما أنت بصفتك راشداً ليس عليك دائماً أن تمتحن نفسك بصفتك راشداً. وجملة «أنا ما زلت لا أعرف ماذا أريد أن أكون عندما أكبر» هي نكتة الراشدين، ولكنها نكتة توضح الأمور وتكشفها. والجملة الأخرى «أنا لا أشعر أنني كبرت» هي شكوى شائعة عند بعض الراشدين. والشعور أن المرء اكتمل نموه ونضجه في الجماعة الإنسانية التي يتكل أفرادها اجتماعياً بعضهم على بعض سوف يحدث فقط إذا دعي ذلك المرء إلى الجماعة، ومُنحت له العضوية الكاملة. إن لم يحدث هذا لك عندما كنت طفلاً سوف يتلاعب الآخرون بمشاعرك بالانتساب أو بالنبذ حين تكون في المراهقة أو حين تكون راشداً. وشعور المرء أنه لا منتم سوف يكون مترصداً كامناً له مستعداً لكي يظهر إذا تجاهله الآخرون أو نبذوه.

شعور المرء أنه خارج الجماعة الأخلاقية مؤلم

يستطيع الأهل والسلطات بسهولة أن يستعملوا تجربة هذا اللانتماء المؤلم لمعاقبة الأولاد والسيطرة عليهم. إن الإبعاد عقوبة قديمة استعملت في العديد من الثقافات، والتهديد بالإبعاد وسيلة يمكن استعمالها من أجل السيطرة.

«إذا ظللت هكذا ستصبح تماماً مثل أولئك الخاسرين» جملة تترجم «مخاطبة عاطفية للولد» ومعناها «قد تكون شخصاً لا ينتمي أو لا يناسب لأحد». لقد صرف أولاد مراهقون بلايين الدولارات ليدفعوا

أذى الأثم الكامن لعدم الانتماء. والراشدون صرفوا بلايين عديدة أكثر من أجل محاولة أن يُضفوا الشرعية على عضوية أولئك الذين يهتمون بأمرهم في الجماعة.

إن الأهل الذين يستعملون التهديدات والغضب للسيطرة على الأولاد يجدون التهديد بالإبعاد من مجموعتنا لمعاقبة الأولاد أمراً سهلاً. قال والد فيليب: «أنا لا أعرف من أنت» هذه أحدث ترجمة لموضوع الاغتراب الذي يعود إلى طريق طويلة في حياة فيليب. يشعر فيليب بخوف مروع حين يسمع أباه يقول ذلك. وخوفه كان حين يسأله أباه إن كان حقاً واحداً من الأسرة. وخوفه هذا قديم العهد «أنا لا أنتمي. أنا واحد من أولئك الذين أبعدهم أهلهم». هذه الممارسة تشكل الأساس لممارسات الإبعاد التي تتم في ثقافة ما ومثالها الحكم السابق.

إن الأسر التي تمارس الحكم السابق نحو أي مجموعة من الآخرين تجازف بالتبرؤ من أولادها هي. في متناول الأهل أن يهاجموا أولادهم حين يسيئون التصرف بتهمة أن الأولاد سيكبرون ليصبحوا «مثل هؤلاء الآخرين» غير المنتمين.

لقد تعود فيليب أن يسمع أهله يستخفون بالآخرين، ويحطون من قدرهم. تنوعات عريضة من الآخرين: كسول متعطل مستجد، يهودي وضيع، أسود ملحاح، جار مكسال لايشذب حديقته، سيدة موظفة تهمل أولادها، كل أولئك كائنات إنسانية لا تستحق التقدير

في نظر الأهل. كل أولئك وأكثر منهم كانوا أهدافاً لملاحظات وضيعة مفتراة ومحادثات نقدية عارضة لدى أهل فيليب. لم يسأل فيليب نفسه لم يستثني أهله تلك الفئات من تعابير التعاطف العادي (الطبيعي) واللطف التي يقدقونها حتى على جروٍ ضائع. أولئك اللامنتمون يستحقون أي شيء يحدث لهم وآخر ما يفعله المرء هو أن يهب لمساعدتهم.

لم تذهب مواقف أهل فيليب تلك الغاضبة سدى عنده لما كبر. بدا له أن أهله ينظرون إليه أحياناً كأنه كائن إنساني وأحياناً أخرى لا يكاد يقترب من كونه شخصاً يسرهم أن يسموه ولدهم.

ترحيب فيليب في الانتماء إلى جماعة أهله الأخلاقية، وهي الجماعة التي تعامله أصلاً مثلما تعامل أنفسها، لم يمنحه أهله إياه قط كما أنه لم يشعر به قط.

هوية فيليب ابناً لأهله، وهو الذي سيكبر ويصبح مثل أهله

كانت هوية مشتبهاً بها وغير حاسمة

معرفتنا لأنفسنا وإلى من ننتمي هما وجهان لعملة واحدة. إذا كان فيليب لن يعرف أبداً بالتأكيد إن كان ينتمي إلى الجماعة التي نشأ وترعرع فيها، حتى في مستوى أسرته، فحينئذ لن يعرف أبداً من هو: وعمما قريب سيصبح عارفاً بألم أن أهله ظلوا يضعونه تحت الاختبار من أجل السيطرة عليه.

إن المسألة كما لو طُلب إلى أحدهم أن ينتسب إلى نادٍ ولكن دون أن يحصل أبداً على منزلة فيه؛ لأنه دائماً يُطلب إليه عمل المزيد للنادي؛ ليثبت أنه يستحق الانتساب إليه. عندما كان أهل فيليب غاضبين منه طلبوا إليه أموراً أكثر يقوم بها لكي يثبت أنه يستحق ترحيبهم به في الجماعة التي ينتمون إليها. ويوجد دائماً المزيد من الأمور إذا أتم ما طلب إليه أهله أن يقوم به من أجل أن يسيطروا عليه، كان فيليب دائماً تحت الاختبار. إن هم أعطوه عضوية كاملة في جماعتهم معنى ذلك أن يتخلوا عن أداة السيطرة هذه.

تمرين 5-A استعمال الإبعاد لإظهار الغضب على الأولاد

إن الخوف هو المحرض الشائع لدى الأهل الذين يهددون أولادهم بعدم الانتساب إليهم. الخوف الذي ينقلب إلى غضب هو دلالة جيدة تطلبها حين تحاول أن تكتشف إن كنت تستعمل الإبعاد لتهدد أولادك من أجل السيطرة عليهم.

جاء فيليب إلى المنزل متأخراً ولم يقم بعمله النظامي الروتيني الذي وعد أن يقوم به. أيقظ هذا أحد مخاوف أبيه حول أولاده. كان الأب يكثر الحكم على «الناس الذين لا قيمة لهم» ويرى وظيفته الأبوية أن يكون يقطاً محترساً أمام أي انحراف. مثل الأهل الذين يعتقدون أن المرض متربص في كل مكان، مهدداً أن يجعل الأولاد مرضى، كان والد فيليب يعتقد أن الأولاد الذين يكبرون عند الناس التافهين الذين لا قيمة لهم موجودون في كل مكان «ربما كان فيليب حقاً واحداً من هؤلاء الناس الذين أظنهم لا قيمة لهم».

يجول الأب حينئذ خوفه إلى غضب على فيليب، فيأخذ شكل قوله: «أنا لا أعرف من أنت» وهذا يعني «أنا لا أعرفك عضواً في هذه الأسرة». إن الاتهامات الأبوية مثل: «إنك متسكع كسول. لا أعلم كيف تستمر في العيش حين تصبح راشداً. إنك مثل أولئك الذين لا قيمة لهم.. ستكون كذا وكذا..» هذه الاتهامات ما هي إلا تبليغ أنك تظن الولد لا يناسب أسرته.

والتهجم الذي يأخذ شكل مقارنة سوء تصرف الولد مع تصرف ولدٍ آخر، وخاصة قريب له، يعمل على الإبعاد أيضاً. «كانت أختك تحرز AS في كل المواد عندما كانت في مثل سنك. لم لا تستطيع أن تكون مثلها. كنت دائماً أعتمد على أخيك عندما...» هذه العبارات تبعد وتقصي الولد. يقولون مثلاً: «فلان انتُخب وأنت لم تنتخب».

فكر ثلاث مرات قبل أن تبعد الولد. تذكر إذا ما فحصت ما الذي يخيفك حول مستقبل ولدك، وستكتشف غالباً تهجمات تستعمل الإبعاد سلاحاً.

هذان المثالان سوف يساعدانك لتنتقل

مثال 1: الحادث

اتصلت أستاذة مايك في الصف الثالث بمنزلنا في إحدى الأمسيات، وأخبرت زوجتي أنها ضبطت مع مايك رسالة صغيرة من بنت في صفه. وهي تسأله إن كان يعرف كيف يأخذون حرارة الجسم في المستشفى، وتسأله أن يقابلها، وأجاب مايك (حسناً)، وأعاد لها المذكرة الصغيرة، وقالت المعلمة: إنها رأت أن علينا أن نعلم بذلك.

التهجم

أتذكر كيف أصبحنا مرتبكين لنبدأ بحل المسألة؟ كان ابننا الكبير قد أنجز نجاحاً جيداً جداً في المدرسة، وكانت أسرتنا محترمة جداً من الجماعة التي نعيش بين ظهرانيها. تحول ارتباكي إلى غضب، وخاصة حين قالت زوجتي: «اهتم أنت بذلك».

لم أكن أعرف حقاً كيف أهتم بذلك، ولكن الذي فعلته هو أنني جابهت مايك في غرفته. وسألته من كانت تلك البنت الصغيرة. وقد خشيت أن أحاول إعطائه فكرة بأن هناك خطباً ما معها، وأنها في صف أدنى ولا أحد يحترمها. ثم قلت: «هل هذا هو المسار الذي تتجه إليه؟ بدلاً من أن تصبح طالباً متفوقاً ينوه بك الأساتذة مثل أخيك وأختك، هل تريدهم أن يطردوك خاسراً؟».

أثر هذا في مايك وشرع يبكي. ومنذ ذلك الوقت بدا كأنه لطيف من الحزن. ولم يعد يقترب مني عندما أكون في المنزل. ولا أنا كنت أبحث عنه. إذ لم أكن أريد الكلام إليه.

مثال 2: الحادث.

كانت ساندي ذات الأربعة عشر عاماً تصيح على أخيها الصغير ذات مساء. كانت في الواقع تصرخ عليه متهمه إياه بأنه أخذ نقوداً من غرفتها. كان صوتها عالياً حتى إني كنت واثقاً أن جميع الجيران يمكن أن يسمعوها ما تقول.

التهجم:

كنت خائفاً ومرتبكاً. كنت خائفاً من أن العلاقة الطيبة التي كنت دائماً أمل أن تكون بين أفراد أسرتي قتلتها ساندي برد فعلها المفرط تجاه أخيها. شعرت أن الأسرة على وشك الانهيار. وكنت مرتبكاً من الظن أن الجيران ربما سمعوا وظنوا أننا من طبقة دنيا في المجتمع.

بدأت أقول لساندي: «أي نوع من الأشخاص أنت؟ هذا أخوك وأنت تصرخين عليه هكذا. أنت كنت واقفة في هذه الغرفة وحدك ماذا تفعلين؟ أنا لا أتعرف عليك بعد اليوم. أنت تتصرفين وكأنك من نوع شخص تافه لا سلوكيات حميدة لديه ولا إحساس بما هو صحيح أو خطأ»

بدأت ساندي تبكي، وشعرت أنني ذهبت بعيداً في تأنيبها. أردت أو حاولت الوصول إليها إلا أنها انسحبت وقالت: «ابعد عني!»

مثالك رقم 1

الحادث

التهم

مثالك رقم 2

الحادث

التهم

مثالك رقم 3

الحادث

التهجم

إن الأسرة هي الجماعة الأخلاقية الطبيعية الأولى للولد، وهي بالتعريف مؤلفة من أولئك الذين تعاملهم بنفس السلوك الذي تعامل به أنفسهم. وفي التعريف ذاته إن كانت أسرتنا هي جماعة الأخلاقية الوحيدة فإننا نعامل أولئك الذين هم خارج أسرتنا بطريقة مختلفة. وحرفياً إن موقفنا الأخلاقي واهتمامنا واحترامنا للآخرين لن تمتد لتشمل من هم خارج الأسرة بنفس الطريقة التي نشعر بها تجاه من ندرك أنها أسرتنا.

ونحن نميل أكثر لأن نكون قادرين على إيلاء جرح أولئك الذين نعددهم غير منتمين أكثر من الذين نعددهم داخل جماعتنا الأخلاقية. إن المنظمات الأخوية قادرة على أن تُرهق وتتهم بالفساد الأخلاقي حتى أعضاء المستقبل الذين هم رهن الاختبار. والعصابات قادرة أن تسبب جروحاً دامية من الإذلال تبقى مدى الحياة في تلك الأرواح التعيسة الحظ التي وجدت نفسها خارجة لا منتمة.

يستطيع «الأناس الأخلاقيون» تنفيذ إعدام بغير قانون، ويستطيعون الحرق والصلب بل وأكل البشر دون أن يشعروا بالذنب تجاه أولئك الذين لا ينتمون إلى نسبهم وعشيرتهم ودينهم وقبيلتهم مما يسمى «نوعهم الخاص»

إن إبعاد الأشخاص الآخرين عن جماعتنا الأخلاقية الخاصة تحررنا نفسياً وأخلاقياً (في أعيننا نحن) من الاهتمام بصالحهم ونفعهم. ولذلك فإن الناس الذين هم «أخلاقيون» في تفاعلاتهم مع «بني نوعهم» يمكن أن يقوموا بأعمال مخيفة نحو الناس الذين لا يدخلون ضمن نوعهم الخاص.

إن الأولاد الذين يوضعون تحت الاختبار كأعضاء في جماعة الأسرة الأخلاقية هم في خطر، إذ قد يعاملوا بنفس الطريقة التي يعامل بها اللامتنمون. أن يكون المرء تحت الاختبار ليس بنفس معنى مواجهة الاستنكار والاستهجان من الأهل أو من الآخرين في الأسرة. يستطيع أولئك الذين يتمتعون باعتمادات صلبة في الأسرة أن يتلقوا

الاستنكار من بعض أعضاء الأسرة دون أن يهددوا بأن يصبحوا لامنتمين. يتأكد الاستنكار فقط حين يأتي على شكل استفهام عن مشروعية الطفل في الأسرة باعتباره تحت الاختبار لا عضواً كاملاً فيها. «كأنك مجرد (س) من الناس، لن تصبح أبداً شخصاً أستطيع أن أتعلم عليه. إنك مجرد ولد سيئ وحسب، هذا هو أنت.»

يمكن أن يريد الأهل بتعريف الولد «كولد سيئ» أنه خارج الجماعة الأخلاقية. وهذا يتيح للأهل أن يؤلوا الولد دون تقدير ما يشعر به من ضيق. وبالنسبة للأهل يمكن أن يكون التهجم على الولد طبيعياً وكأنه تهجم على «أولئك الناس»، وإن كان في العالم حولك العديد ممن تحكم عليهم – أي عندك تجاههم أفكار سابقة – فسيعاني أولادك على الأغلب خوفاً قوياً. سيخاف أولادك من أن تستعمل براميل النفايات نفسها لنبذهم فيها. عندما تستنكر جماعات من الناس يسمع أولادك الرسالة التي تقول: إن هؤلاء الأشخاص سيئون. وعندما تستنكر سلوكيات أولادك سيسمعون بسهولة الرسالة بأنهم من «هؤلاء» الناس، وليسوا أشخاصاً «منا».

والعكس أيضاً صحيح. حين تتحدث بشكل طيب عن جميع الناس سيسهر أولادك أنك ترحب بهم في جماعتك الأخلاقية. سيأخذون الأمر لا جدال فيه بأنهم لن يكونوا أبداً رهن الاختبار. وإذا استنكرت أمراً صدر منهم فلن يثير الاستنكار موضوع الرفض أو النبذ. استنكارك يقول حينئذ: «أنا أصر أن تتصرف على هذا النحو» ولا يقول: «أنت تتصرف مثل شخص أنا أرفضه لأنه ليس مثلي...».

إننا جميعاً - شئنا أو أبينا - قادرون على أن نكون قساة تجاه الآخرين حين نراهم ليسوا حقاً أناساً. حين نرى الآخرين كالأشياء ليس لهم مشاعر، وليس لهم تجارب حب ومطامع وأسر يحبونها وأحلام يحلمون بها يعطوننا إذناً «أخلاقياً» لمعاملتهم كما نعامل الأعشاب الضارة في الحديقة. حين يهاجم الأب أو الأم ابناً على أنه لا يشبه عضواً مشروعاً في الإنسانية، ولا يستحق أن يكونه، فإن هذا الأب يميل إلى الشعور بأنه لا يوجد تردد في إساءة معاملة الولد.

مرة ثانية نواجه واقع أننا إذا كان علينا أن ننقص استعمال الغضب مع الأولاد فإن علينا أن نغير. إنها ليست مسألة تعلم هذه التقنية أو تلك الحيلة. ينبغي أن نغير أنفسنا. يتطلب الترحيب بأولادنا في الأسرة كجماعة أخلاقية - وهي مجموعة من الناس يشعر كل واحد منهم بالآلام ونجاحات الآخرين كما لو أنها آلامه ونجاحاته هو - يتطلب أن نتعرف أحكامنا السابقة ونقللها بقدر ما نستطيع.

لنفرض أنك تتمنى أن تهدي وتريح ثقة ابن مذعور. وأثناء عملك هذا كنت تقطع عدة مرات تبادلك الحديث معه بصرخات تطلقها أو بخفض لأناس مر ذكرهم. فهل تظن أنك تستطيع أن تريح ثقة الولد بهذه الطريقة؟ إن محاولة إدخال الولد في أسرتك عضواً كامل النضج على حين يراك ابنك تلح على الرفض والنقد للآخرين وتخفف من شأن الذين يثيرون استيائك يؤثر في الولد الذي لا يعلم نفسه من هو أو من هي وخاصة عندما تظهر استيائك منهما.

أحد المجالات الشديدة التأثير في بناء ثقة أولادك لكي يكونوا أشخاصاً أو يوضعوا رهن اختبار كي يصبحوا أشخاصاً هو معاملتك لأصدقاء أولادك. إن الترحيب بأصدقائهم كضيوف في الأسرة يعيد الطمأنينة إلى الأولاد.

إن الترحيب بأصدقاء الأولاد كضيوف مشروعين في الأسرة يعيد الطمأنينة إلى أولادك الذين هم أعضاء مشروعون في الأسرة.

يتضمن منح الطلاب الدرجات الجامعية جملة هي «بكل ما يترتب على ذلك من حقوق وامتيازات» والأمر على هذا النحو حين يكون المرء عضواً في أسرة فمعناه أن يكون له حقوق وامتيازات العضوية. ومنح الحقوق هذا يختلف عند الأولاد الكبار عنه عند الأولاد الصغار، ويختلف الأمر عند الأولاد عنه عند الأهل، ولكن ينبغي أن تكون الحقوق موجودة للجميع.

وأحد أهم الحقوق الأساسية في الأسرة هو اختيار الأصدقاء الذين ينبغي أن يحترموا من أعضاء الأسرة الآخرين، على الأقل إلى أن يظهر أن هذا الصديق خطر أو لا يستحق الثقة. وإبعاد الأصدقاء بسبب لون البشرة أو الاسم أو الأسرة أو الدرجة أو مظهر الشعر أو الثياب ينبيئ أولادك بأن أنواعاً محددة فقط من الناس مشروعة «مثلنا» ويرتاب أولادك أنفسهم في معايشة أي «واحد منهم».

يذهب الأطفال حيث يرحب بهم، وأولئك الذين يرحبون بهم إلى حد ما على الأقل يؤثر في هوياتهم

كان يقال: «يحتاج الأمر إلى قرية من البشر لتثبته ولد»، قد نزيد نحن أن هذا صحيح خاصة إذا لم ينشئهم أبوان وصحيح أيضاً أن أسر الأولاد إذا رحبت أو لم ترحب بهم في جماعتها الأخلاقية فإن الأولاد سوف ينجذبون نحو أي جماعة أخرى ترحب بهم.

إن الكنائس والفرق الرياضية والعصابات وأسر الشوارع جميعها تقدم للأولاد «عضوية أخلاقية» وتُسهّم في هويات الأولاد. حتى الجماعات الإجرامية لا بد أن يكون لها شكل من الأخلاق بين أفرادها. وإلا فإن هذه الجماعات تدمر نفسها.

تمرين B-5: اخرج أولادك من وضعهم رهن الاختيار وحافظ على عضوية فعالة لهم داخل الأسرة

إن الخط الأساسي هو أن تفعل ما بوسعك للترحيب بأولادك في الأسرة وأن تقدم لهم عضوية نهائية لا تُلغى، وغاية في الأهمية أنك حين تصبح مستاء وخاصة عندما تصبح غاضباً من أولادك أن تحتفظ بنظرتك لهم على أنهم أعضاء في الأسرة. إذا بدأت تفقد هذه النظرة فستجد نفسك مهاجماً أولادك دون تعاطف مع الألم الذي يحدثه تهجمك فيهم.

ومن المهم بشكل خاص أن تحافظ على شعور أولادك بأنهم أعضاء أسرة مرحب بهم في أسر مؤتلفة، أي أسر مع أولاد من زيجات سابقة لكلا الأبوين. وليس شجار الأهل حول معاملة الأولاد بالتساوي مؤذياً للأولاد وحسب، بل إنه يصبح غالباً مصدر مشكلات جدية في الزواج.

ثمة فكرة جيدة تستعملها لتحري وضع أولادك، وهي شعورك بعدم ارتياحهم في مرات سابقة حين أظهرت لهم استياءك وعدم تأييدك. إن كان ألمهم يسبب لك عدم الارتياح حينئذ تبين لهم أنهم مستمررون في البقاء داخل الأسرة إذا شعرت أن ألمهم هو إرضاء لغضبك وحسب حينئذ تكون - على الأقل وقتياً - قد أسقطتهم من العضوية في الأسرة بصفتها جماعة أخلاقية.

حاول أن تتذكر حادثين شعرت فيهما شعوراً سيئاً تجاه ولدك بعد أن عاقبته، ولكنك شعرت بالغضب وحده أو بالسخط المسوّغ أخلاقياً وأنت تنفذ معاقبتك.

إليك مثالين يساعدانك كي تدرك عم تبحث:

مثال 1: الحادث

وجدت حقيبة بلاستيكية فيها سوق وبذور تحت فراش ابننا البالغ خمسة عشر عاماً. نظرت حولي فوجدت أنوباً زجاجياً فيه مادة الماريجوانا في إناء حشر في رف عال من خزائنه. عندما عاد إلى المنزل بدأت أصيح به. واتهمته بالسرقة لأنني كنت أعرف أنه لم يكن يستطيع أن يتكلف شراء المخدرات. وأخبرته أنه لن يستطيع بعد ذلك اليوم الاتصال برفاقه لأنهم جماعة من الحشاشين. وواصلت الكلام وواصلت. جلس هناك ورأسه منخفض حتى ركبتيه تقريباً. وبينما كان هذا مستمراً لم أشعر نحوه بشيء إلا بالغضب وبالخيانة أو الغدر منه.

مشاعرك فيما بعد

استغرقتني وقت طويل كي أغير مشاعري. ظللت أياماً أحدجه بنظرة الغضب حيثما أراه. وجدته يهيبني غداءه ذات يوم. أنا أهيبته له عادة. قلت: «جيد. من الأفضل أن تتعلم صنع الساندويتش (اللفائف). ربما هذا ما ستنتهي إليه لتقييم أودك».

بدأت أعود إلى طريق الرشاد والأمور التي قلتها له أخذت تمرقني كأنها مُدى (سكاكين). وأدركت الآن أنني لم أصنع شيئاً لحل المشكلة ماعدا أنني خفضت من شأنه وأذلتته عملياً.

ماذا كان بوسعك أن تفعلي؟

الآن أرى أنني ما كنت أعلم ماذا فعل ومع من كان يفعل ذلك وكيف كان يفكر في ذلك الأمر، ولا أعلم أي شيء آخر. وفي ذلك الوقت توقف التواصل بيننا تماماً. كان بوسعي أن أقرر التحدث معه حول نقص علمي بالذي كان يحدث وأن أسأله أن يشرح لي الأمر. كان بوسعي أن أقترح أن يدعو أصدقاءه ونجري اجتماعاً ليتشاركوا اهتماماتهم ومعتقداتهم حول المخدرات. كان بوسعي أن أعد ألا أشاركهم في أي شيء إلا في الأسئلة والطعام. هذا يشعر أكثر بالثبات. ربما لم يفث الأوان بعد.

مثال 2: الحادث

جاءت روث من المدرسة الثانوية إلى المنزل مع صديقة جديدة كانت هذه الصديقة ترتدي جينزاً مثقياً في كل أنحاءه، ومرفعاً بأقمشة مختلفة ورقعة كبيرة تماماً عند زاوية البنطال بين القدمين. كانت تضع العديد من الحلق على أذنيها وحاجبيها وأنفها. لم أستطع النظر إليها. وبعد ذهابها سألت روث بصوت تهكمي حقاً: «من كانت هذه اللعنة؟»

نظرت روث بغضب وقالت: «إنها ليست (كذلك) إنها إنسانة. إنها أهدأ إنسانة، إنها أهدأ بنت في صفّي إن كنت تريدين أن تعرفي. ولكنها ربما لا تناسب معاييرك. ربما أنا لا أناسب معاييرك أيضاً» جعلني هذا الكلام أ غضب. وقلت: «حسناً ربما لا تناسبين معاييري».

مشاعرك فيما بعد

شعرت مباشرة شعوراً رهيباً. شعرت أن عليّ أن ألقها خارج حياتي

ماذا كان بوسعك أن تفعلي؟

الأمر بسيط. كل ما كان علي فعله هو أن أدع روث تخبرني عن تلك الفتاة. كانت متحمسة في تعرفها على صديقة جديدة. وفي الواقع كان معنى أنها أتت بها إلى المنزل أنها تتوقع مني قبولها.

مثالك رقم 1

الحادث

مشاعرك فيما بعد

ماذا كان بوسعك أن تفعلني

مثالك رقم 2

الحادث

مشاعرك فيما بعد ماذا كان بوسعك أن تفعل

إن إبقاء أولادك خارج الاختبار أعضاء في الأسرة هو واحد من الأشياء الأساسية التي بوسعك أن تقوم بها لتؤثر في هوياتهم وفي سعادتهم بصفتهم راشدين. قبل مئة عام عندما كان معظم الناس يعيشون في المزارع والمناطق الريفية كانت الأمور أسهل وأكثر طبيعية في موضوع الترحيب بالأولاد في الأسر على نحو يرسخ هوياتهم. يتوق الأولاد أن تتوبهم الحظوظ ويصبحوا مثل أهلهم.

كان الأولاد في الماضي يعملون مع أهلهم في مزارع الأسر، يبتهجون حين يعطيهم أهلهم فرصة للقيام بمهمة تناسب الراشدين. كل دعوة من الأهل كانت تأكيداً لمشروعية الطفل وهويته كعضو في الأسرة.

هذه المناسبات غير متوافرة لمعظم الأسر في الوقت الحاضر. ولكن الأسر غالباً ما تبدد الفرص التي بقيت لديهم للعمل مع أولادهم وتقديم فرصة لهم كي يعينوهم بأعمال الكبار. فجزّ العشب أو العمل في الحدائق أو إعادة شكل صنع القرار حول هذه الأمور كلها مناسبات للعمل مع أولادك. أحياناً يوكل الأهل لأولادهم القيام ببعض الأمور الروتينية اليومية ثم يتركونها لهم. هذا جيد ولكن إلى حد ما. حاول النظر إلى كل مهمة توكل إليهم كمنااسبة لك للعمل مع أولادك.

اعملوا معاً على إصلاح فناء البيت. اسأل أولادك ماهو رأيهم في زرع النباتات أو كيف يمكن إنجاز بعض التأثير. كل عمل شامل تقوم به مع أولادك يمنحهم هوية عضو في جماعة أخلاقية.

سجل التمرين للفصل 5

إن تسجيل الحوادث التي تفخر بها يساعدك كثيراً على صنع التغييرات التي تهتمك في الواقع.

دع مكاناً في دفترك لتسجيل ثلاثة أو أربعة حوادث كنت فيها قادراً على تعرفٍ إشارة الخطر بأنك كدت تضع ابنك رهن الاختيار. بالإضافة إلى ذلك ضع مكاناً لتسجيل ثلاثة أفكار على الأقل توصلت إليها لتتشارك مع أولادك في المهام وفي اتخاذ القرارات.

إليك هذا المثال لحدث مسجل ساعد الولد على أن يعرف كعضو في الأسرة.

التاريخ 12/8

الحدث

كنت أنا وزوجتي نحاول أن نقرر هل نشترى بيتاً أم نرمم بيتاً مستأجراً. كنا نفعل ذلك أحياناً إذا استطعنا أن نجد طريقة لنقوم بعمل بأنفسنا وبذلك نزيد الدخل الممكن للبيت. بحثنا وبحثنا عن هذا المنزل الخاص ولكننا لم نستطع اتخاذ قرار.

وأخيراً خطر لي أننا نحتاج عينين نضرتين للبحث عن المنزل. كانت ابنتنا ذات الستة عشر ربيعاً تسمع ما يدور بيننا من أحاديث حول المنزل، ولكنها لم تتفوه بكلمة. قلت لزوجتي: «دعينا نأخذ معنا (آن) لتلقي نظرة هناك ونرى ماذا تفكر».

سألنا آن فقالت: إنها لا تعلم أي شيء في هذه الموضوعات، ولكنها بدت مسرورة أننا سألناها. وبعد البحث حول المكان ثانية معها وبعد أن أجبنها عن أسئلتها قالت آن: «تدريان، إحدى صديقاتي في المدرسة تسكن على بعد بيتين من هنا. أخبرتني أنها ستذهب إلى الساوث سنترال بعد هذه السنة لأنهم غيروا خطوط المنطقة. والساوث سنترال هي مدرسة جيدة ولكن الطريق إليها بعيد. قالت إن أهلها والعديد من الآخرين حولهم يخططون للانتقال ليبقوا أولادهم في النورث سنترال العالي أو ليبقوا قريباً من الساوث سنترال».

تبادلنا النظرات أنا وزوجتي ثم عانقناها. وقالت زوجتي لها ونحن في طريقنا إلى السيارة: «أني لقد أنقذتنا من دفع مبالغ كبيرة من المال. هل تحبين أن نتوقف لتناول سندويشة من اللحم المقلي؟».